كسروان لاول مرة سنة ١٢٨٧ كما قال الدويهي او سنة ١٣٠٧. وقال صاحب مختصر تاريخ لبنان بعد ايراده حادثة خراب كسروان: « اما اواسط كسروان فدامت خرابا مدة مستطيلة ومركز دير مار شليطا في اواسط كسروان فالشطوط والازواق كانت مأهولة واعالي لبنان كفاريا وميروبا كانت كذلك بخلاف اواسطه » والله اعلم بالصواب (ستأتي البقية)

حبيس بحيرة قدس

للاب هنري لامنس اليسوعي

معربة بقلم العلم رشيد الخوري الشرتوني (تابع لما سبق)

امَّا الاب يوحنا فانتظر نهاية الازمة ثم قال:

تقولين انك تريدين الخلاص وتتكلَّمين عن الموت... ولا شك ان الموت هو أفضل دواء لكل الشرور... والحق يُقال انهُ ليس بدواء جديد بل هو علاج كل نفس ضعيفة. وعندما تسأليني قائلةً « لماذا يبلوني الله تعالى ويمتحنني ؟ » تشبهين جنديًا شابًا دُعي الى ساحة الوغى لاول مرة فصرخ قائلًا: ترى ماذا صنعت لقائدي حتى يعرِّضني لخاطر الحرب ؟ فيقال لهُ وقتئذٍ انك جندي وهو قول كافٍ وافٍ لمن احسن التدبر والروية. كذلك في جهاد الحياة لا يسلم احد من المحن والبلايا... وقد قضي على كل انسان ان لا ينال عظمةً او فائدة الَّا ممتزجة بالمشقَّة والغمّ والعذاب فاذا لم يشقَّ الحارث قلبَ الارض وينصب بفلاحتها فلا يصيب غلةً تقوتهُ. ولا تكون الوالدة والدةً ان لم تقاسِ العذاب. ودون مخاوف الحرب وكرائهها من اين تُعرف بسالة الجندي ؟

- وانتِ بدلًا من الجهاد والقتال في هذه الدنيا تقصدين ان تلقي بسلاحك في ساحة الوغى

— صدقتَ يا ابتِ فاغتفر لي هذه الكلمات التي حملني عليها عذاب مقيم ضلَّل عقلي واعمى بصيرتي ويكفيني اني عرفت ذنبي وقد اخطأت الى الله واليك يا ابانا يا من اظهرتَ لي كل الحنو والرأفة في جميع الاوقات

— انك تضلِّين ضلالًا بعيدًا اذا كنت تتوهمين بانك امرأة قويَّة العزم اسمعي مني وعي. ولا يخفاك انَّ الشيوخ يحبون ذكر امثال ماضية

— تكلّم يا ابتِ فان كلامك يعزّيني ويطفئ نار عذابي. قل فكلّ كلمة منك تعلمني الاقتداء بصبرك وتصبّ على قلبي روح التسليم والرضى بما قضاه الخالق

— اسمحي لي اذًا ان اخبرك قصّة امرأة أُخرى كانت في الحقيقة قويّة العزيمة ثابتة الجأش تجاه الشدّة. وما اردت ذكرها على مسامعك الّا لانها تشبه قصتك:

كان كلوتير ملكًا على الفرنج والبلاد التي اتى منها اجدادكِ. وكان يحب امرأتهُ راديغوندة حبًا عظيمًا وقد رُزق منها ستة اولاد. ففي ذات يوم تقدمت اليهِ راديغوندة المذكورة التي كان حبُّهُ لها كما قلنا لا يحيط بهِ حدّ وسألتهُ ان يسعى في تزويج شقيقتها التي هي اصغر منها الى شاب من الملوك يليق بها. غير ان هذه الشقيقة نزلت من قلب الملك منزلة عظيمة جدًّا حملتهُ على ان يجاوب امرأتهُ بقولهِ:

— لقد اتممت رغبتك وبحثت لشقيقتك عن افضل الرجولة فلم اجد افضل مني... فسأتخذها اذًا عروسًا لي بدلًا منك وفي ظني ان امرًا كهذا لا يسوءك. واذا ساءك فمن يقاومني وانا ملك ليس عليَّ ان اؤدي حسابًا لاحد

فوقع هذا الكلام على راديغوندة مثل الصاعقة المنقضّة غير انها لمّا كانت قويّة النفس وشديدة الحزم سكّنت ما ثار في نفسها من الغيظ والحنق واكتفت من جواب الملك بقولها:

ليفعل سيدي الملك ما يحسن في عينيهِ. ولكن غاية رجائي ان يتكرّم على من كانت امراتهُ ان تحيا في حظوة سيدها الملك...

وهمّ الاب يوحنّا ان يتمم القصة غير ان راحيل صرخت صرخةً عظيمة اشبه بالرعد في وقت الزوبعة وقاطعتهُ قائلة:

— لم يكن صعبًا على تلك الافرنجيّة ان تكتم محبّتها لانها لم تذق طعم المحبّة اصلًا... وعلى كل حال فقد فاتتها شهامة الحبّ كما فاتتها حميّتهُ وحرارتهُ. كلا انهُ مهما كان الحب المجرد عن شين النفس خالصًا ونقيًا لا يتمّ ولا يكمل الّا اذا اقترن بشهامتهِ الفطريّة وحرارتهِ الطبيعيّة... نعم ان كلوتير الذي تتكلّم عنهُ كان ادنى من ان يستأهل هذه الحرارة... غير ان زينًا ليس من هذا الصنف ولكنهُ شريف المبادئ نبيل الاخلاق رقيق الطباع حتى الآن اي وقت خلالهِ وابتعادهِ عني. وهذا هو السبب

الذي من اجلهِ لا استطيع ان انقطع عن محبتهِ واطفئ نار الحمية التي كثيرًا ما يشعلها الحب

وكان النوتي في اثناء هذه المحاورة واقفًا على مسافة يسيرة · غير ان هذا الرجل المجهول الذي كان قد اتى بهِ الخادم ومن من قرية قطينه لمَّا سمع الكلمات الاخيرة من حديث راحيل كرَّ مسرعًا وخلع الطيلسان الذي كان ملتحفًا بهِ وانطرح على قدمي المرأة المنمومة وكشف عن صدرهِ قائلًا:

اطعني هذا الصدر اللئيم وخذي بثأرك فقد حقَّ لك الانتقام · ايتها الضحيَّة البارَّة الشريفة عاقبي جلَّادك الذي انزل بك ما لا تتأملين من الهمّ والنكد . . .

ولم يكن المذكور سوى زين زوج راحيل المقدَّم · واعترى اذ ذاك شهود هذه الحادثة ضرب من الدهشة والجمود فوقف الكل مبهوتين حائرين وقد نشر الصمت لواءهُ فوق رؤوسهم · غير ان راحيل بعد ان حقَّقت النظر في من كان يتوسَّل اليها وهو خارٌّ على قدميها وعرفت انهُ زوجها افرخ روعها بغتةً وذهب ما شعرت بهِ من القلق ثمَّ سقطت خائرة القوى بين ذراعيهِ

وقد سبقت لنا الاشارة ان زينًا كان قد انتبه الى سلوكهِ الملتوي وفطن لما تقاسي قرينتهُ الفاضلة الامينة من التعص والتكد بسببهِ فكان قصد ان يرعوي في الحال عن كلّ ما يكدرها ويعكّر صفاء عيشهِ وعيشها · ولكن اعظم الناس استقامةً واحسنهم سريرة قد تعميهم الخيلاء عن انتهاج طريق الصواب ولو رأوهُ واضحًا ومتى ملأ رؤوسهم بخار الغطرسة اعمى بصائرهم ولو كانت منيرةً وأزاغ عقولهم ولو كانوا من أشدّ الخلق استقامةً وحزمًا وكل ذلك لان الانسان يصعب عليهِ ان يعترف بخطائهِ وهذا هو السبب في ما نلاحظهُ من التناقض وفوات الارتباط في اعمال البعض من الذين عُرفوا بمكارم الاخلاق الموجبة الى الناس وجوب احترامهم واكرامهم

وكان المقدَّم زين اوشك ان ينقاد للضعف البشري ككثيرين غيرهُ · وقد عرفتَ ممَّا سبق بيانه انهُ في سيرتهِ لم يُزَنَّ بشيءٍ يخالف الامانة والاخلاص · وان قلت كيف طاوعهُ قلبهُ وضميرهُ على ان يُنزل بقرينتهِ ما انزل بها من النقم ويصدّ عنها كلّ ما مرَّ عليك خبرهُ من الصدود والاهمال · أجبنا ان ذلك سرٌّ من اسرار القلب البشري ولو انهُ كان اقل تمسكًا بمبادئ الشرف والضمير لساقهُ تيَّار الاهواء الى ما لا تحمد عاقبتهُ

غير ان ما طبع عليهِ من استقامة الفطرة ما لبث ان تغلّب على فؤاده ولكن بعد حرب طويلة داخليّة ومعارك كثيرة باطنيــة أذاقتهُ الامرّين. وكلّ ذلك لانهُ كان يستصعب الاعتراف بذنبهِ والاقرار بانهُ عذّب افضل النساء امانةً واخلاصاً لازواجهنّ ولهذا كان في بادئ الامر يحاول مقاتلة صوت ضميرهِ ويلجأ الى الاقيسة الفاسدة ليبرّئ بهـا نفسهُ قدام هذا القاضي العادل... غير ان الراحة هجرتهُ من ذاك الوقت هجراً كاملاً فاستمرّ ضميرهُ يوبخهُ توبيخاً لاذعاً على العذاب الذي ركّهُ بخفّتهِ وطيشهِ على هامة قرينةٍ تُعدّ من فضليات النساء.

وكان موسى الخادم الامين قد سعى جهدهُ في تقريب القلوب واعادة الحب القديم الى مجراهُ لانهُ بينما كان ذات يوم مصاحباً مولاهُ في احد اسفارهِ العديدة سألهُ زين عن السبب الذي من اجلهِ كانت راحيل تغيب عن القصر مراراً في السنة فباح لهُ المذكور بكل شيء. فتظاهر زين بالارتياب والشك. فاشار عليهِ موسى ان يذهب الى قرية قطينة على ضفّة بحيرة قدس ليتحقّق بعينهِ صدق الخبر. وعلى ذلك فبسعيهِ تنكّر زين بثوب نوتي وسافر الى جزيرة البحيرة حيث سمع من فم امرأتهِ اقرارها بعذابها الدائم وانها مع ذلك تحبهُ من كل قلبها حتى انها تهوى الموت من اجلهِ

ولا سبيل الى اكتناه ما شعر بهِ زين وتنتذ من الخجل فاحس كأنّ الجبال اطبقت عليهِ وساقتهُ الندامة الى ان يخرّ عند قدمي امرأتهِ قائلاً: رُحماكِ رحماكِ قد كنت جلادكِ فهل تنعمين عليّ بالصفح الجميل ؟

امّا راحيل فما اجابت بغير ذرف الدموع. وكانت دموعها هــذه المرّة دموع فرح وابتهاج وهذا كل ما كانت تشتهيه من إدراك ثارها وقطّ لم يخطر ببالها سواهُ. لانها في الحقيقة كانت ذات نفس سامية. نعم انهــا كانت فخوراً متباهية ولكن فخارها غير ناجم عن خيلاء مصدرها الحماقة والجهل بل عن مزيد الاطمئنان الذي يوليهِ صفــاء الضمير الى صاحبهِ

وبعد ان شاهد الاب يوحنا حبيس الجزيرة هذا المنظر المؤثر هتف بصوت رزين قائلاً :

اجل انهُ ليعزّ على القوّة البشريّة ان يبقى الحب مجهولاً ومكتوماً ويتّصل حتى نسيان الذات وتلاشيها... الّا ان السعي والاجتهاد في هذا السبيل لا يخلو من فضل

واجر ولهذا صدر عنـهُ بعض الخير لانهُ اعاد من كانا جديرين بالتحاب احدهما الى الآخر . . حقًا ان المحبة البشرية يمكن ان تقابل الى حدّ محدود بالمحبة الالهيَّة ولهذا ايتها السيدة الشريفة لا يُعدّ امرًا مستغربًا قصدكِ راهبًا في الثمانين من عمرهِ لاجل طلب النصح والمشورة منهُ . فمحبَّة الله حتى في وسط العالم هي بلا ريب من الامور السهلة . ولكن الصعب هو ان نحبهُ حبًا مجرَّدًا عن الغاية الشخصيَّة او بالحري ان نحبهُ لاجل نفسهِ لا لسبب آخر . وهو امر يمكن ان لا يكون قد ادركهُ حقّ ادراكهِ أعاظم القديسين . وهذا هو السبب الذي من اجلهِ تظهر محبَّتنا لله في اغلب الاوقات مثل حرب مترددة في الخير وكفَّارة ناقصة في الشر لانهُ لا كمال في هذا العالم وانما الكمال في السماء

فسعدًا اذًا للمتحابين الارضيين الذين يخرجون نظيركما ظافرين من حلبة الجهاد ويستطيعان ان يتأملا بعين راضية في الكفَّارة الماضية

ثم انهُ رفع يدهُ فباركهما بين زنبق الزوبعة التي في اثنائها كانا تلاقيا وتصالحا وبينما كان الجوّ فوق قمم عكَّار يدوي بزمازم الرعد كان الحبيس ينهي صلاتهُ بقولهِ « امين »

٢٣

ماذا جرى للاب يوحنَّا وكيف كان مصيرهُ ؟

بقي هذا الشيخ الجليل في الجزيرة حيث تناوبتهُ الاوجاع والآلام ولم يكن لهُ عزاء في بيرة غاراتها سوى التأملات الباطنة والعلائق المتَّصلة مع الله ربهِ . وكان في حياتهِ كلها يرتاح الى خلوةٍ يصير فيها منسيًا وقد ظفر بما تشتهي نفسهُ فلم يكن ليريد من اصدقائهِ سوى هذا الخير السامي في نظرهِ

وعليهِ كان يرى تلك الجزيرة جميلة جدًا بما فيها من أغراس التين واشجار الحور وغابات القصب التي تلجأ اليها أسراب البط ويستحسن منظر النطاق المائي المحيط بها وجوّها الحارّ اللامع نورًا واشراقًا ومناظر الجبال المشرفة عليها واشدّ من ذلك الوحدة التي لا يقلقها مقلق . وكان اذا التفت الى قلايتهِ ورأى حقارتها والحجارة السوداء التي بُنيت بها تجول في خاطرهِ افكار كثيرة وتذكارات شجون عديدة حتى لا يعود يشعر بحزن على مفارقتها

فبناء عليهِ كان من المستحيل حملهُ على ترك منفاهُ الذي اصبح عندهُ عزيزًا من

جملة وجوه. ومن ثمَّ ذهبت باطلاً كل الحاحات زين وواجيل عليهِ في مرافقتهما لانهُ عزم على ان يموت في المكان الذي قد طالما صلّى فيهِ ونصب وتوجّع

وكذلك عبثاً عرضا عليهِ ان ينهي ما بقي من حياتهِ في البترون او في دير من ديورة الناحية كدير كفر حي او دير البلند في الكورة الذي كانت حمايتهُ مختصّة من قديم الزمان باسرة لبريك لكنهما لم ينتفعا شيئاً من هذا كلهِ. فكفّا عن الالحاح في الطلب ليقينهما بان كلّ ما يبذلانهِ من المساعي لا يقوى على تغيير عزيمة الحبيس في شيء.

انَّ في قلوب البشر لسرًّا فلا توجد محبة في الاقل محبة بشريّة دون ان تكون ممتزجة بشيء من الخيلاء والانانيّة ولقد ضلَّ الاب يوحنا في ذهابهِ الى خلاف ذلك ضلالاً سمحت بهِ العناية الالهيّة لتقريب قلبين ما كان اجدر كلًّا منهما بالآخر. وكيفما كان الامر يجب القول انهُ لولا المثل السامي الذي اعطاهُ فادي الناس الاله المتأنس لاجل خلاصنا لما عرف العالم اصلاً ما هي الرأفة الحقيقيّة الخالصة ولا ما هي المحبة الخالية بالتمام من الاغراض الشخصيّة

ثمَّ انَّ المقدَّم وقرينته شكرا للحبيس جميلهُ بارقّ العبارات وألطفها وبادرا الى السفر والاجتماع مع بعضهما بعيدين عن الانظار تعويضاً لما كان فاتهما من اوقات الألفة والاتفاق. وكانا يحسبان السنتين اللتين صرفاهما بالغم والنكد بمنزلة دهور طويلة فلذلك قد خيّل لهما انهما قد تلاقيا بعد غيبة طويلة وانهما يعيشان بعد ذلك بما لا مزيد عليهِ من الحب والائتلاف. وعلى اثر وداعهما للاب يوحنا الذي استخدمتهُ العناية الالهيّة كآلة لاجتماعهما سارا في الطريق المؤدية الى جبل لبنان

ولمَّا اقترب النهار هدأت الزوبعة التي كانت ثائرةً في الليل وعاد الى الجوّ صحوهُ ونقاوتهُ وطلعت الغزالة من وراء قمم الجبل الشرقي الى ناحيةجوسية مفيضةً اشعّتها على سهول حمص. وكان كل شيء كاسياً بجبر المسرّة وجميع ما في الطبيعة ضاحكاً يشارك هذين الزوجين في حبورهما الذي صوّر البحيرة لاعينهما بجمال فائق لم يشاهداهُ قط فيها ومثّل لهما الوعر باسماً ومرحباً مع انهُ معروف بوحشتهِ واقتارهِ وحجارتهِ السوداء التي تلمع تحت نور الشمس كلمعان فحم قريب الانطفاء. وقصارى القول ان ائتلافهما جدّد لهما السعادة والهناء وكثيرًا ما ردّدا ذلك على بعضهما عند اجتيازهما البحيرة للمرّة الاخيرة

(الباقي للآتي)